

قال: ولکان حریا أن یفقد کثیراً من سلامة طبعه، ومقومات فصاحتہ، وما کان کسبه فی علوم اللغة بمعوض خسارته شیئاً من فطرته القویمة الغنیة عن النحو والصرف... إن الجاحظ لیتحدث إلینا عن بدوی نزل علیهم وأقام معهم وحرص علی أن تكون داره فی أحد أطراف البلد حیث تمتد الصحراء فهو لم یتعمق فی الحاضرة، ولم یهجّر البادية هجراً تاماً، ولم یخالط غیر الجاحظ وأضرابه من أصحاب اللغة والادب، ومع هذا لم یبق - من حیث سلامة اللغة - هو الذی وردهم یوم ورد... إنه لخیر لصاحبنا الذی لم یفقه "فعل فعول" أن یظل هکذا جاهلاً کلام الترك والروم. خیر له دون شک أن یظل حراً فی لغته، ولیت شعرى ما جدواه من القواعد أو السلاسل والاعلال إلا أن تعوقه وتعوق حركاته الخفیفة الرشیقة؟ دعه طلیقاً ینطق ما قد یبدو خطأ إذا أنت أخضعتہ لاحکام النحاة وإنهم لمضطرون إلى أن یحتالوا فیوائموا بین منطوقی أبي ثلاثة و بین قواعدهم وإنه لغير مضطر إلى أن یأخذ مقوله بمعیارهم.

قلت: ما أحسب "کتاب النحاة" غادر صغیرة ولا کبیرة إلا أحصاها.

قال: إنه لکتابک یوم تلقى ربک - أو کشف الحساب - هذا الذی لا یغادر کبیرة ولا صغیرة إلا أحصاها. فأما "کتاب النحاة" أعنی مجموع کلامهم بما فیہ ما لم یصلنا - فقد غادر ما شئت من صغیرة وکبیرة، ألم یمت علم من أعلام النحو فی قلبه من "حتى"

ترغب إليه - ملحة الرغبة - فی أن یضم إليها متعلقاتها کاملة غیر منقوصة، ولكنه یموت قبل أن یشیع رغبة حتی. ألا وإن حروفاً أخرى کثیرة لتمسک برقاب البصریین والکوفیین، ناعية علیهم أنهم فرطوا فی ذواتها، أو قسطوا علیها فأکلوا حقوقها أو منحوها غیر مستحق ففرطوا وأفراطوا. فهذه الاسماء الخمسة أو الستة وهي شخوص قائمات بذواتها أو قل دولة مستقلة، ذات سیادة لا تابعة لسیادة أخرى، ولكنک ترى أصحاب النحو یعدون علی هذه الدولة المستقلة، ویأبون إلا أن ینزلوها منزلة التوابع فیلحقوها بدولة